كان وقبائلها «26»

محمد القعود
Kood500@hotmail.com

كان التسامح
يعيش في أطراف المدينة
فقيراً من الأنصار
عارياً من الشعارات
يتيماً من الانتماءات البلهاء،
وحيداً مع الوحشة القارسة
مديناً للصبر بأعوام عديدة،
مثخناً بالخيبات المتواصلة،
تأويه خيمته المهترئة
وتتجاهله ذئاب البراري
وثعالب الايديولوجيا
لبؤسه وضالة جسده المنهك..

كان التسامح
يعامل بصورة فجّةٍ
وينظر إليه كالغرباء والمنبوذين
ويهمّش في جميع المناسبات
ويتم تفتيشه بصورة مهينةٍ
ويشتبه في أمره المريب
ويستوقف في جميع حواجز الصراع
لعدم وجود وثائق تثبت شخصيته الغامضة..

كان التسامح
يكتم مواجعه ،ويوقد في ليل الظلمات آماله،
يعزف على الناي نشيده الأممي
ويرتجل قصيدة عشق لكل الناس،
يتبلل بدموعه كلما رأى طفلاً مجروحاً،
ويصاب بحالة إغماء إن سمع بمقتل طفل
اصطادته أصابع أبالسة العصر..
يولول كأم ثكلي
إن شاهد وردة داستها أقدام الهمجية،
ويشارك العصافير نواحها
إن أحرقت أعشاشها قذيفة طائشة،
ويحن إن رأى الأفواه
وهي تنتظر رغيف الخبز الذي لن يأتي..

كان التسامح
يتجاهل بريق الأكاذيب،
ويتجنّب الإصغاء إلى أدعياء الوطنية،
ويميم بوجهه شطر الحب
ويستقبل قبلة الضوء والوطن
ويصلي لله صلاة خالصة..

كان التسامح
يتناسى زفراته في جميع المنعطفات
ويربّي الأمل في خياله،
ويسقي الابتسامة بمواعيد قادمة
وأمطار ستهطل بالمحبة..

كان الحزن
يتجول وحيداً في أسواق صنعاء القديمة
ويصب لعناته على أعداء الحياة
ويقّبل الأبواب العتيقة،
ويعتذر إلى الأزمنة المذعورة
ويضع وردة مهداة من البشرية
على قبر المبادئ المغدورة..

كان الصدى
يشيّع قتلاه إلى مقبرة النسيان
ويعلن الحداد القومي
حزناً على صمته الفقيد.

كان الإطار
يبحث عن وجه يتفق مع تطلعاته
وينسجم مع سياسته العامة
ويبتسم دوماً لطموحاته الخارقة
ويعبّر في كل لحظة عن رضائه التام..

كان العابر
يدق باب المدى
ويسأل عن طريق آمنٍ لضياعه.

كان الإمّعة
يهتف لكل رموز التفاهة
ويقدس جميع الأحذية
ويدافع باستماتة عن نتانة الأحزاب،
وينتظر من جرذانها إشادة عابرة،
وشهادة تقدير ،وتوصية برحلة إلى الفضاء..

كان السيف
يؤلف بلاداً مكتملة المعاني
خالية من الصفات الضارة بطبقات الإوزون
ومصفّاة من الشوائب القبلية
وطاهرة من رجس المطامع
وبريئة من تجار الأديان..

كان الوطن
يفلّي رأس ابنائه من قمل الفتنة،
ويصحو بعد منتصف الليل
ليغطي صغاره من هجمة البرد،
ويلقي بردائه فوق ابنته المدللة،
ويتفقد شبابيك البيت
لسدّ أي ثقوب تتسلل منها ريح الكوابيس،

كان الأحمق
يجلد الحكمة بسوط الشهرة
ويشهد المارة
على حصافته الذكية
في مواجهة جميع الكوارث..

كان القرط
يتدلى من أذن الحقيقة
ويسبب إحراجاً للفتنة/ الفاتنة العابرة،
يتلألأ بأضواء أسراره
ويشير بأصابع الدلال
إلى قاتله..

كان الغد
يبدي مخاوفه من الانحراف
وإدمان كل الموبقات الحديثة،
والتحوّل من الذكورة إلى الأنوثة
والوقوف في طابور مدرسة المشاغبين،
الصباحي،
والانتظار أمام بيت اللص المسلح ،لتأييده،
والجلوس على رصيف مهدم
لإلقاء التحية على مواكب التعاسة العابرة.

كان الميدان
مواطناً لشجر الأثل
وملعباً للأحلام والنسور..
يستيقظ عشبه مع الندى
ويتسابق ضجيجه عند الظهيرة
وتهجع بروقه
مع أخر نشرة أخبار للمطر..

كان الميدان
فسحة لرقصة الفصول وملتقى لفرح الأعياد..
يزوره أهل القرى
وترفده البيوت بالبخور،
يبارك للخطى أنطلاقها
ويجمع الجميع على المحبة والوئام،
يحشد النوايا الطيبة
لمواجهة يبوسة الخريف
ويرتجل الأتي بنقاء طفولي
ويسمو فوق الجراح..

كان الميدان
يقّلب صفحة المآسي
ويدون في أول صفحة عمره:
أهلاً بالحب.. أهلاً بالصباح.

كان الشبح
يلقي بيانه الغامض
ويشير إلى شيء ما في الأفق،
يلمّح إلى وقوع كارثة
ويستدركها .. بحرف لكن،
ويترك بقية السطر مفتوحاً حتى النهاية.

■ مقاطع من نص طويل

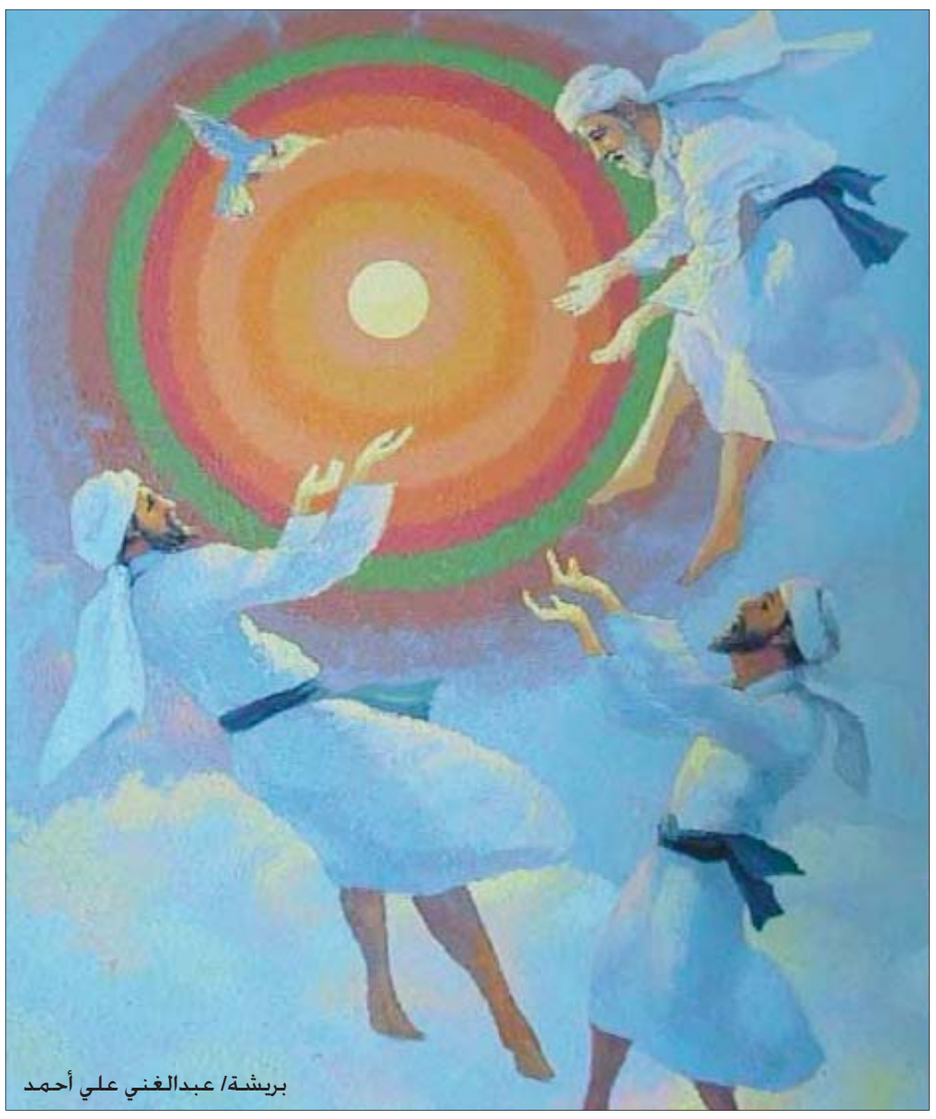

بريشة/ عبدالغني علي أحمد

إصدارات ثقافية

ثلاثية من كتب الأطفال

● أبوظبي- على هامش معرض الشارقة الدولي للكتاب أصدر مشروع « كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث سلسلة ثلاثية من كتب الأطفال تمت ترجمتها عن اللغة الألمانية، تتضمن السلسلة ثلاثة عناوين على النحو التالي: «حكايات فرانس» و«حكايات جديدة لفرانس مع كرة القدم» و«حكايات فرانس والخيل»، وهي من تأليف الكاتبة الألمانية كرستينة نوستلنغر، وقامت بنقلها إلى العربية المترجمة فيولا الراهب.

فرانس يعيش حياة سعيدة، ولكنه يرى أن لديه أربع مشكلات، أولها أنه أقصر من أقرانه، والثانية عندما ينفعل يتحدث بصوت رفيع جداً، أما المشكلة الثالثة فهي الفتاة جابي، تلك الفتاة العنيدة التي تريد أن تنفذ دائماً ما في رأسها، وعندما لا يطاوعها فرانس فإنها تغضب وتتذمر، ولا يستطيع إلا أن يجاريها، خوفاً من أن أن تخاصمه إن لم يفعل ما تريد.

يجمع الكتاب الأول «حكايات فرانس» ثلاث قصص متنوعة مرت ببطل الحكايات فرانس، ففي القصة الأولى يحاول أن يثبت للآخرين بأنه صبي وليس فتاة ويتم ذلك بالفعل ولكن بطريقة عفوية وفكاهية، فهو صبي في السادسة من عمره، ولكن كثيراً من الناس يحسبونه في الرابعة لصغر حجمه وضآلة جسده، كما يظن كثيرون أنه فتاة. ربما كان السبب هو شعره الذهبي المفلفل، وعيناه الزرقاوان وشفتاه الحمراوان الأشبه بحبات الكرز، وخّداه الورديان المستديران. وغالبية الناس يظنون أن تلك صفات البنات الصغيرات الجميلات فحسب، كما تروي لنا قصة أخرى حكايته عندما يمرض ويبقى في المنزل في رعاية أخيه، لكن الأخ لا يعتني به بصورة جيدة، وفي آخر قصة تأتي مناسبة عيد الأم ويبذل فرانس قصارى جهده ليقدم لأمه هدية متميزة وجميلة.

وفي الكتاب الثاني «حكايات جديدة لفرانس مع كرة القدم» يخرج فرانس من فريق الأولاد لكرة القدم بعد أن اتفق أعضاء الفريق بأنه ضعيف ولا يمكنه أن يشارك في المباريات الصعبة، الأمر الذي يحزنه كثيراً، ولكن الفتاة جابي تقنعه بأن ينضم لفريق الفتيات لكرة القدم، وعلى الرغم من أنه يشعر بالحرج لانضمامه إلى فريق البنات، إلا أنه وافق ليستمر في ممارسة كرة القدم التي يحبها كثيراً، وبفضل فرانس يتفوق فريق التلميذات على فريق التلاميذ، لذا يسعى زملاؤه في الفصل لعودته إلى فريقهم مرة أخرى.

أما في الكتاب الثالث من السلسلة «حكايات فرانس والخيل»، فيتحدث عن الاهتمام المفاجئ لفرانس بالخيل، حيث أصبح يعرف عنها الكثير والكثير بين عشية وضحاها، وذلك منذ أصبحت جابي مهووسة بها. لدرجة أنه يدّعي بأنه يستطيع ركوب الخيل، وكانت الكذبة على وشك أن تنفضح: إذ بدأت جابي بالاستعداد لحصص ركوب الخيل لتركب مع فرانس، وعليه أن يعرض لها مهاراته في الفروسية، فيلجأ إلى جدته طلباً للمساعدة.

هذه السلسلة الحكائية لفرانس للكاتبة الألمانية كرستينه نوستلنغر، إحدى أشهر كتاب قصص الأطفال والناشئة باللغة الألمانية، كما تعمل في الإذاعة والتلفاز والصحافة. ولدت نوستلنغر في ١٣ أكتوبر من عام ١٩٣٦ في فيينا بالنمسا، وعاشت طفولتها وشبابها مع والديها وشقيقتها الكبرى في فيينا في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. صدر لها ما يقارب المئة من كتب الأطفال والناشئة. وتُرجمت أعمالها إلى أكثر من ٢٠ لغة. حازت على العديد من الجوائز منها جائزة هانس كريستيان أندرسون عام ١٩٨٤ عن أعمالها الكاملة، والتي تعد أهم جائزة عالمية في مجال كتب الأطفال والناشئة.

المترجمة فيولا الراهب، ولدت في بيت لحم بفلسطين عام ١٩٦٩، درست علم التربية في ألمانيا، عملت في حقل التدريس بالأردن وفلسطين، تعيش اليوم وتعمل في فينا بالنمسا. لها عدة كتب باللغة الألمانية.

في غابات سيبيريا

● أمضى الصحافي والكاتب والرحّالة الفرنسي سيلفان تيسون الكثير من وقته متنقلا في بلدان آسيا الوسطى. وديانها وشعابها وجبالها وسهوبها. هذا قبل أن يعيش مغامرة العزلة في غابات سيبيريا بعيدا عن «الحضارة» في كوخ. ومن خلال تلك التجربة في قلب المنطقة السيبيرية خرج بكتاب مثير للمتعة والدهشة تحت عنوان «في غابات سيبيريا».

إن جملة في هذا الكتاب تدل كثيرا عمّا كان يبحث عنه صاحبه من العيش وحيدا في كوخ بسيبيريا لمدة ستة أشهر كاملة. إنه كان يبحث عن «السلام»، سلامه الداخلي. نقرأ: «يكفي مجرد طرح السؤال على السكون في مكان عمّا لم يعد يقدمه الترحال لي: السلام». هكذا وبحثا عن «السلام» وعن «الحرية» كما يكرر سيلفان تيسون القول، وجد الحل «الجذري والقديم» المتمثل في العيش بعيدا عن الآخرين، كما كان يفعل البعض في روسيا القديمة. يشير المؤلف أنه اختار «تجربة الصمت» و«العزلة» و«البرد» خلال مغامرته التي استمرت بين شهر فبراير ٢٠١٠ وشهر يوليو من نفس السنة. ومكان إقامته كان «كوخا» بناه باحثون جيولوجيون سوفييت في زمن رئاسة ليونيد بريجنيف. تبلغ مساحته حوالي تسعة أمتار مربّعة وتتم تدفئته بواسطة مدفأة مصنوعة من الفخار، ويحتاج الوصول إلى أول قرية انطلاقا منه ستة أيام سيرا على الأقدام.

ما يؤكده فيليب تيسون هو أن تجربة العيش في حالة عزلة عن العالم تفرض على صاحب المغامرة التقيّد بـ«إيقاع صارم» في الحياة اليومية. وإيقاع الحياة الذي تبنّاه تمثل بالخط العريض في القراءة أو الكتابة أو الرسم خلال الفترة الصباحية ثم الاهتمام لمدة خمس ساعات تالية بتأمين متطلبات العيش من قطع الأخشاب وإبعاد الثلوج المتراكمة من جدار الكوخ وتحضير أدوات صيد السمك من بحيرة «بايكال» القريبة.

المسألة الأكثر قسوة في تجربة العزلة عن البشر بالطريقة التي اختارها يحددها بـ«نجاح المرء في تحمل نفسه»، إذ إن عكس ذلك يعني خوض «مواجهة» دون إمكانية الاعتماد على أحد فـ«لا كتف» و«لا وجه» في الجوار. وكان شابوروف، حارس الغابات الذي أوصله في اليوم الأول للكوخ، يدرك ذلك جيدا، إذ قال له: «هذا مكان رائع للانتحار».

أما أحد الدروس الأكثر أهمية التي استخلصها المؤلف من تجربته النادرة فيحدده بالقول إنه عندما يكون كل شيء نادرا فيما يحيط بالإنسان، على عكس عالم الوفرة الذي يشهده البشر اليوم، فإن الإنسان لا يركز اهتمامه سوى على ما هو «أساسي» وليس ما هو «استهلاكي». فكيف إذا كانت درجة الحرارة في الخارج أقل من ٣٠ تحت الصفر ومصدر التغذية الأساسي هو الأسماك في البحيرة المجاورة.

الملفت للانتباه أن سيلفان تيسون يكيل في هذا الكتاب «المديح للرقابة» في مواجهة الحركة المفرطة التي يفرضها إيقاع الحياة الحديثة. ويبدو بوضوح رفضه لما يسميه «حضارة المدن» اليوم. نقرأ: «إن البرودة والصمت والعزلة حالات سيتم التفاوض من أجل الحصول عليها غدا بأسعار مرتفعة أكثر من الذهب اليوم. وعلى أرض مكتظة بالسكان أكثر مما ينبغي، وساخنة أكثر مما ينبغي ومليئة بالضجيج، لا شك أن كوخا في غابة هو بمثابة فردوس الدورادو- حقيقي». ولا يجد القارئ في هذا الكتاب أي أثر للشكوى من ظروف الحياة التي صادفها المؤلف في «كوخه» السيبيري. على العكس، لم تكن عزلته «دعوة للانتحار» بل كانت بمثابة «انبعاث» حقيقي، كما يقول. وجد كما يؤكد أن العزلة «خصبة» ويمكنها أن تمثل دعوة للاندفاع باتجاه الحياة.

نقرأ: «لقد فهمت في وقت مبكّر أنني لن أستطيع فيه أن أفعل الشيء الكثير من أجل تغيير العالم. فقررت أن أعيش وحيدا لفترة من الزمن في كوخ بغابات سيبيريا. لقد حاولت أن أكون سعيدا وأعتقد أنني قد نجحت في ذلك».

ويسأل المؤلف متأمّلا: «وماذا لو كانت الحرية في القدرة على التصرّف بالوقت؟ وماذا لو كانت السعادة تكمن في التمتع بالعزلة والرحابة والصمت، أي بكل الأشياء التي سوف تكون غائبة بالنسبة لأجيال المستقبل»؟ ويجيب عن هذه التساؤلات كلها بالقول: «طالما ستكون هناك أكواخ في أعماق الغابات، لن تكون خسارة البشر كاملة».

لا شك أن المتعة كبيرة بقراءة ما كتبه سيلفان تيسون من انطباعات، ويوما بيوم تقريبا، بمواجهة الصمت العميق، وما عاشه من «نضال» كي يؤمّن سبل البقاء في أحضان طبيعة قاسية و«معادية». إن القارئ يصطحب صاحب المغامرة عبر ما كتب عمّا عرفه من خيبات الأمل والشكوك، ولكن أيضا من لحظات «النشوة» والسلام الداخلي والوئام الروحاني مع الطبيعة، رغم قساوتها.

نقرأ في إحدى الجمل النهائية من الكتاب: «الحياة في كوخ تعلّم كيفية شغل كل لحظة وعدم انتظار شيء من المستقبل وقبول ما يجري وكأنه عيد. إن عبقرية المكان تساعد على مقاربة الزمن».

»الانفراد بالذات«

الحياة في العزلة هي أيضا حياة من الزهد و»من الانفراد بالذات» في رحلة لعيش المغامرة الإنسانية الداخلية. هذا ما يعبّر عنه سيلفان تيسون بالقول إنه كان «يوشوش لذاته» أمام خوض تلك المغامرة: «سوف أعرف أخيرا إذا كنت أمتلك حياة داخلية». ما يبدو بوضوح هو أن المؤلف عاش تجربة زاخرة بالتأمّل بالزمان والمكان والجمال والعالم الذي نعيش فيه.

المؤلف في سطور

سيلفان تيسون، صحافي وكاتب ورحّالة فرنسي. قام برحلة حول العالم على ظهر درّاجة هوائية. يمضي الكثير من وقته منذ عام ١٩٩٧ في منطقة آسيا الوسطى متنقلاً في مختلف بلدانها.

الكتاب: في غابات سيبيريا - تأليف: سيلفان تيسون - الناشر: غاليمار - باريس - ٢٠١١م.